

ملاحمُ الشعر الاجتماعي عند يحيى بن حكم الغزال

د. سودابه مظفري

جامعة الخوارزمي بطهران - كلية الآداب و العلوم الإنسانية

د.ولي الله أنصاري

جامعة الخوارزمي بطهران - كلية الآداب و العلوم الإنسانية

In poetry Yahya Ibn Hakam Al Ghazzal

Social poetry features

Dr.

Soudabeh Mozaffari⁴⁴

Dr.

Valyollah Ansari⁴⁵

Abstract:

Social criticism as an important instrument is available to able and realist poet who pays attention to social affairs and deals with people's feelings in his poetry. This doesn't mean that he expresses his own feelings but his expressions belong more to needs and feelings of his people. This poet shares himself in people's happiness and grief so the aim of this genre of poetry is to criticize social phenomena.

dishonest judges, jurisprudents, and other peoples of palace by criticizing social corruption. He believed in the role of poetry in statement of social problems and improvement. In his social poetry he criticized poverty and wealth, man and woman affair, futile entertainment, statesmen's abuse of political positions.

This research tried to demonstrate the criteria of social criticism in descriptive analytical method in his poetry.

Keywords: Yahya al Ghazzal, Social poetry, Andalusian literature, Social understanding.

الخلاصة:

الشعر الاجتماعي كوسيلة هامة في يد الشاعر المفلق الواقعي الذي يهتم بأمور الناس ويعبر فيه عن شعوره الجماعي، فهو في شعره لا يعبر عن شعوره فحسب، بل يعبر كذلك عن شعور أفراد مجتمعه، فيشاركهم آلامهم وآمالهم، والمقصود بهذا اللون من الشعر نقد الظواهر الاجتماعية، يتوصل البحث إلى أن يحيى بن الحكم الغزال من الشعراء البارزين في هذا المجال خاصة في الأندلس وهو رائد لهذا اللون من الشعر بها، وليس هذا الأمر بغريب على الغزال، حيث إن شخصيته على الرغم والمتنفعين من القضاة والفقهاء وغيرهم من رجال القصر ناقداً للأوضاع الاجتماعية الفاسدة لمجتمعه، استغلال النفوذ والمنصب. ويهدف هذا البحث كشف ملاح الشعر الاجتماعي في أشعار الغزال على أساس المنهج الوصفي- التحليلي.

الكلمات المفتاحية: يحيى الغزال، الشعر الاجتماعي، الأدب الأندلسي، رجال السياسة، القضاة والفقهاء، الظواهر الاجتماعية.

المقدمة

أهمية البحث وضرورته

الشعر الاجتماعي من الموضوعات الأساسية عند الشعراء الذين يهتمون بأمور الشعب و هم أعضاء من المجتمع لهم تأثير جذري في الاصلاحات الاجتماعية، و علي كل شاعر ملتزم يجب أن ينظر إلي ما يراه من الأمراض الاجتماعية مثل الفساد، الفقر، الخلاعة و العدول عن الحق نظرة الناقد العارف ولا يمر مروراً حياً منها، و هذه الصفة من أهم الصفات التي تجعل الشاعر أبرز دوراً من الآخرين و لو كان مغضوباً عليه عند الحكام و المقتدرين، و يكاد لا يوجد في الأدب العربي القديم و خاصة الأندلس شاعر يختار الحرية و الدفاع عن العدالة و الاهتمام بالناس، و لو أدى هذا إلي حرمانه و الاضطهاد من جانب أرباب القوة و الثروة؛ من الذين قاموا بوجه الطبقة العليا في المجتمع و انتشروا مخازيهم و مفايدهم دون الخوف هو يحيى بن حكيم الغزال. هذا البحث دراسة تحليلية عن ملاحم الشعر الاجتماعي لهذا الشاعر الأندلسي الذي لم يسكت في مواجهة الفساد و الجور في المجتمع الأندلسي، بل كشف عن كل الانحرافات في أشعاره الاجتماعية ساعياً إلي اصلاح المجتمع و هادفاً دعوة الناس إلي الرقي و القيام ضد الظلم و الفساد، فتجربته مستقاة من واقع مجتمعه الذي يعيش فيه، و من أهم أهداف الشعر تبين الحياة الاجتماعية بشتي زواياها بهدف تعزيز و تنمية المبادئ الانسانية و تضعيف و القضاء علي المفايد و تقويم المعوجات الاجتماعية؛ يهدف هذا البحث إلقاء الضوء علي الوجوه الاجتماعية من أشعار الغزال التي تعد من أحسن الأشعار الاجتماعية في الأدب العربي و لاسيما في الأدب الأندلسي، معتمدا علي المنهج الوصفي - التحليلي.

أهداف البحث

يهدف هذا البحث كشف ملاحم الشعر الاجتماعي في أشعار الغزال علي أساس المنهج الوصفي- التحليلي، من حيث أنه يؤمن بدور الشعر الهام في تناول القضايا والمشكلات الاجتماعية، فهاجم المنافقين والمتنفعين من القضاة والفقهاء وغيرهم من رجال القصر ناقداً الأوضاع الاجتماعية الفاسدة لمجتمعهم قاصداً تقويم المبادئ الانسانية في المجتمع.

أسئلة البحث

- ١- ما هي محاور الشعر الاجتماعي عند يحيى بن حكيم؟
- ٢- كيف تتجلى ملاحم شعر يحيى بن حكيم الاجتماعي؟

خلفية البحث

لم تُدرس هذه الميزة من أشعار الغزال التي تشمل غالبية أبياته بعد، و أكثر الباحثين كشریف مفلح في مقالته «رحلات يحيى الغزال الأندلسي: المضامين والأهمية التاريخية»، وحكمة علي الأوسي في المقالة عنوانها «يحيى بن حكيم الغزال؛ سفير الأندلس وشاعرها الواقعي»، اهتموا به كرجل سياسي انشغل بأمور سياسية- حكومية في الأندلس وغيرها، كسفير بلده لدى الروم و الدنمارك، ونجد الموضوع مبعثراً في الكتب و ديوانه دون التحليل، لهذا عزمنا بدراسة جانب عظيم من شعر الغزال الاجتماعي و تبين الظروف الاجتماعية في شعره.

نبذة عن حياة يحيى بن حكيم الغزال

يحيى بن حكيم البكري الجياني المشتهر بالغزال من الشخصيات الأندلسية التي تركت أثراً مهماً في عدد من الجوانب، وهو -كما تدل نسبته- ينتمي إلي أسرة عربية أصيلة، وبلدته التي أخرجته هي (جيان) كانت مركز كورة في الأندلس؛ أما الغزال فهو لقب لزمه، حتى إن الأمير الأموي عبد الرحمن

الأوسط استقبله مرة بشطر من الشعر، فقال: «جاء الغزال بحسنه وجماله^١»، وأجاز الغزال شطر الأمير، فقال: (من الكامل)
قال الأمير مداعباً بمقاله جاء الغزال بحسنه وجماله
أين الجمال من امرئ أربى على متعدد السبعين من أحواله^٢
في قطعة شعرية حسنة، والخبر يدل على استمتاع الغزال بجماله وحسن هيئته إلى شيخوخته.

والغزال يدخل في كبار الشعراء ويعد من أوائل الرحالين الأندلسيين، وهو أشهر دبلوماسي لهذه المدة المبكرة من حياة الإسلام في الأندلس، وكان للغزال مشاركة قوية في العلوم العقلية، واشتهر بلقب «العراف» لخبرته في علم النجوم (الفلك) إضافة إلى خبرته ومعرفته بالعلوم النقلية^٣.
أدرك يحيى بن حكيم في حياته إمارة خمسة من حكام الأندلس الأمويين^٤: عبد الرحمن الداخل (ت ١٧٢) وهشام ابن عبد الرحمن (ت ١٨٠) والحكم بن هشام (ت ٢٠٦) وعبد الرحمن الأوسط ابن الحكم (ت ٢٣٨) ومحمد بن عبد الرحمن (ت ٢٧٣)^٥، ومن هنا قال الغزال: (من الرجز)

أدركت بالمصر ملوكاً أربعه وخامساً هذا الذي نحن معه^٦
ولم تذكر التواريخ مكان ولادته، ويرجح أنه ولد ونشأ في (جيان) ثم العاصمة قرطبة، حيث عاش فيها باقي حياته واحتفظ بنسبته إلى بلده "الجنياني".

كان ليحيى عمر مديد أتاح له أن يبرز في أكثر من صعيد وأن تتنوع جوانب حياته وأن تكون له علاقات ومداخلات في طبقات المجتمع المختلفة، وفي شعره الباقي ما يدل على هذه العلاقات الاجتماعية التي ترجمها شعره إلى قصائد ذات مزايا وخصوصيات، وفيه ما يفصح عن الجوانب المتعددة التي عالجها على الصعيد الشخصي والصعيد الرسمي.

كان في صفات الغزّال: الذكاء الذي يرقى إلى درجة الأملعية والبساطة في مداولة شؤون الحياة المختلفة، وروح الدعاية التي لاتفارقه في المواقف الصعبة، والجُرأة في النقد الاجتماعي؛ حتّى إنه طال في نقده اللّاذع وهجائه بعض كبار رجال الدولة، وكان شعر الغزّال مرآة لهذه الأوصاف من شخصيته وحكاية لكثير من مجريات حياته وتعبيراً عن مواقفه اللّاذعة وتسجيلاً لجوانب من أحداث زمانه.

كان الغزّال موصول اليد بالدولة الأموية: تولّى الأعمال المختلفة، وتولّى السفارة عنها في رحلتين مشهورتين، وكان من جلساء الأمراء^٧. وفي أخبار الغزّال أنّه رحل إلى المشرق؛ نفاه الأمير عبد الرحمن الأوسط من الأندلس بسبب هجائه المقذع لزرياب، فرحل إلى العراق^٨.

قام الغزّال برحلتين سفاريّتين مبعوثاً من الأمير الأمويّ عبد الرحمن (الأوسط)؛ الرحلة السفارية الأولى إلى القسطنطينية، سنة ٢٢٥هـ في رسالة جوابية إلى الامبراطور تيوفيل (سمّاه أبو تمام في البائية: توفلس)، وكانت بيزنطة (دولة الروم) بعد هزيمتها في (عمورية) سنة ٢٢٣هـ، رغبت في التقرب إلى دولة بني مروان بالأندلس في محاولة لتخفيف الضّغط عنها^٩؛ وكانت الرحلة السفارية الثانية على الأرجح إلى جنلند (الدنمارك؛ بلاد النّرمان) سنة ٢٣٠هـ. وكانت رحلته رحلة جوابية ردّاً على رسالة مع وفد دنمارك الذي قدم برغبة ملكهم في عقد علاقات سلمية ومعاهدة صداقة، وكان النّرمانديون قد أغاروا على إشبيلية وغيرها ثم هزمهم الأندلسيون. وللغزّال في رحلته وفي لقائه الملك والملكة شعر حسن، علّق كراتشكوفسكي هنا فقال: «إن الغزّال أدّى دور الدبلوماسي مرتين، وهو شاعر فنّان، وعلى معرفة بعدد من اللّغات^{١٠}». وفي الملكة النّرماندية يقول: (من السريع)

كلّفت في قلبي هوى متعباً غالبت منه الضيغم الأغلبا

إني تعلقْتُ مَجُوسِيَّةً تَأْ بى لشمسِ الحُسْنِ أن تغرباً ١١
وقد نجت مهمة الغزال، وسجل السبق بريادة السفارات الدبلوماسية
الأندلسية.

شعر الغزال

«نظم الغزال في أغراض شتى من الشعر: الغزل، الهجاء، التعريض، المدح، الوصف، الحكمة، التأمل في شؤون الحياة، وبرزت قدرته على معالجة النقد الاجتماعي في موضوعات متعددة؛ ومن أغراض الشاعر البارزة في شعره الباقي هو الهجاء والتعريض، ومن أصابه هجاء الغزال: المغني زرياب، وكان زرياب مثقفاً كبيراً وفلكياً بارعاً وعالماً مقتدراً وشاعراً مطبوعاً. وقد طور زرياب الموسيقى العربية فزاد الوتر الخامس في العود وعزف بريشة النسر بدل الخشب، وأسس مدرسة تعليم الموسيقى يلقن طلابه فن الموسيقى على مراحل من الإيقاع إلى الألحان والعزف. وكان أول من استحدث الكورس، ولا يقبل في مدرسته إلا بعد امتحان لأصوات الطلاب والكشف الطبّي عن الصدر والأسنان، كما أرسى قواعد المعاشرة والمجالسة وآدابها، فطور الملابس حسب اختلاف الفصول وتصنيف الشعر واتخاذ الأكواب من الزجاج بدل المعادن واصطنع الأصص للأزهار من الذهب والفضة»^{١٢}. والنصر الخصي ذو النفوذ و«هو قائد جيش عظيم أرسله عبدالرحمن الثاني لمناصرة جيش الإسلام في الحرب علي النرمان، فأنتهى الأمر إلي هزيمة العدو، وبعد هذه الواقعة نال النصر الخصي علي المناصب العالية و صار من ذوي النفوذ عند أمير الدولة الأموية في الأندلس»^{١٣}. ويبرز في شعر النقد الاجتماعي قضايا الغنى والفقر، وعلاقة الرجل والمرأة، والألعاب الملهية، واستغلال النفوذ، وكان للشاعر نفسٌ ممدودٌ في التعبير عن ظروف حياته. ومن شعره الساخر الاجتماعي قوله: (من الوافر)

إذا أُخبرتَ عن رجلٍ بريٍّ من الآفاتِ ظاهرُهُ صحيحُ
فَسَلُّهُمْ عنه: هل هو آدميٌّ؟ فإن قالوا نَعَمْ فالقولُ رِيحُ! ١٤
الشعرُ عنده تعبيرٌ عن موقفٍ أو رأيٍ يقالُ أو تصويرٌ للحظةٍ أو ومضةٍ
من ومضاتِ الحياة، و من هنا كان في شعره حماسةٌ ذاتيةٌ و حرارةٌ وتدفعٌ، و
من هنا ابتعدَ عن أن يكونَ فناً مصنوعاً. إكتفى الغزالُ بأن يكونَ شعره لمحّةٍ
دالةٍ و كلمةٍ وجدانيةٍ صادقةٍ مؤثرةٍ بانفعاله بها ١٥. و يتجلى في شعره النظرةُ
الذكيةُ و قدرةُ الشاعرِ علي اختطافِ الفكرةِ و الإيصالِ و التفاعلِ مع السامعِ،
و يجد همومَ الناسِ و يفرغُ ما يشاهدُ في الاجتماعِ من الجورِ و الفسادِ و
الأعمالِ اللاإنسانيةِ من قبل ذوي المناصبِ العاليةِ في أشعاره علي سبيلِ النقدِ
اللاذعِ القريبِ من الهجاءِ.

الشعر الاجتماعيّ في شعر الغزال

ينقسمُ البحثُ عن شعر الغزالِ الاجتماعيّ علي خمسةِ أقسام:

١- الفقهاء و القضاة

إذا تتبّعنا أشعار يحيى نري فيها أبياتٌ متعددةٌ ينشر فيها مخازي الفقهاء و
القضاة الذين كانوا يستغلّون المناصبَ في غير طريقها، ومنها ما قاله في القاضي
أسوار بن عقبة ١٦: (من المتقارب)
وتَحسبُ مَنْ خَبَّه أَنَّهُ تَراه عن النَّاسِ في غَربِهِ
و ما ذاكَ مِنْهُ فلا تَأْمَنُو هَ إلا لَتُمْكِنَـهُ الوَثْبُـه
رَأيتَ لَه ناظري هَـرّة تَراءي لَهَا الفأْرُ في ثقبهِ ١٧
حينما تنظر إليه تحسبه لا يستطيع أن يضرَّ الناسَ لأنَّه منشغلٌ بأمورٍ يبعدُ أن
يرتبطُ بما يمكنُ الإضرارِ مِنْهُ و لكن يجبُ أن لا تَأْمَنُوهُ لأنَّه في مواجهته و
معاملته الناسَ كالهَـرّة التي ترصدُ الفئرانَ للصَّيدِ دون أن تشعرُ الفئرانَ

بوجودها و هي دقيق في صيدها، لأنّ عينيها تري الفأرة و ترقبها و لو كانت في ثقبه، و هكذا القاضي أسوار .

ومّا قال في فساد القاضي معاذ بن عثمان الشّعباني^{١٨}، فكان قاضياً بقرطبة من جانب الأمير عبد الرحمن بن الحكم^{١٩}، و ما استطاع أن يبقي في مهمته إلا سبعة أشهر^{٢٠}: (من الطويل)

يقول لي القاضي معاذ مشاوراً و وليّ أمراً فيمايري من ذوي العدل:
فديتُك ! ماذا تحسب المرء صانعاً فقلت: و ماذا يفعل الدّب في النحل؟
يدقّ خلایها و يأكل شهدها و يترك للذّبان ما كان من فضل^{٢١}
يصوّر الشّاعر فساد القاضي في تصوير هجائيّ نقديّ بطريقة الحوار بين الشّخصين و هو حاضر و شاهد عليّ ما يفعله في المجتمع و يكشف تجاوزه الحدّ في اهتمامه بجمع المال ساخراً بتشبيهه بالدّب و ما يفعل بالعسل.

وهو يرمي بنقده الفقهاء الذين لا يكثرثون بما يعاني الناس من الفقر و يجبرون الزّكاة عليّ من لا يجب عليه هذا الحكم الشرعيّ، و يخاطب تلويحياً رجلاً ألحّ عليه في أن ينال منه مالاً سهماً يعتدّ في الزّكاة و هو لا يتمكن منها، فيقول: (من الخفيف)

قلتُ إذ كرّر المقالة: يكفي! أنت أولي بدرهمي أم عيالي؟
لستُ ممّن يكون يخدعه مث لك: فاعلم؛ بهـذه الاقوال
ما أؤديّ الزّكاة إلا كما يعصّر زقّ معسلّ بالحبّال! ^{٢٢}

لقد جاءت أبيات الغزال هذه تحدياً فاضحة لجباه الأموال، حيث نقد فيها بعض الفقهاء فاكتشف من بينهم من يسعى للكسب غير المشروع، و راح يعرض واقع الفقهاء ويصفهم بالغني الذي يستفسر عن مصدره، ومع ذلك فهم لا يعنون بمعاناة الشعب.

وأما قوله في القاضي يخامر^{٢٣}:

فُسُبْحَانَ مَنْ أَعْطَاكَ بَطْشاً وَقُوَّةً وَ سُبْحَانَ مَنْ وَلَّى الْقَضَاءَ
 وَ هُوَ الْقَاضِي الَّذِي اسْتَغْلَ مِنْ مَنْصِبِهِ فَعَامَلَ النَّاسَ بِخَلْقٍ صَعْبٍ وَ مَذْهَبٍ
 وَعَرٍ وَصَلَابَةٍ جَاوَزَتْ الْمَقْدَارَ، فَلَمْ تَحْتَمِلْ لَهُ الْعَامَّةُ ذَلِكَ، فَسَلَطَ عَلَيْهِ الْأُلسَنَةَ
 وَكَثُرَتْ فِيهِ الْمَقَالَةُ، فَانْبَرَى لَهُ الْغَزَالُ وَيَصِفُهُ بِالْبَلْهَةِ وَ الْجَهْلِ ٢٥: (مَنْ الطَّوِيلُ)
 قُلْتُ لَهُ كَلَفْتَنِي فَوْقَ صَنَعَتِي كَمَا قَلَّدُوا فَصَلَ الْقَضَاءِ بِخَامِرَا
 فَاصْبَحَ قَدْ حَارَتْ بِهِ طَرَقُ الْهَوَى يَكَابِدُ لَجِيئاً مِنَ الْبَحْرِ زَاخِرَا
 فَقُلْتُ: لَوْ اسْتَعْفَيْتَ مِنْهَا، فَقَالَ لِي: سَأَفْضَحُ مَا قَدْ كَانَ مِنْكَ مَغَايِرَا
 فَقُلْتُ لَهُ: رَأْسُ الْفَضْوَاحِ إِقَامَةٌ عَلَيْنَا كَذَا مِنْ غَيْرِ عِلْمٍ مَكَايِرَا!
 وَ خَبَطْتُكَ فِي دِينِ الْإِلَهِ عَلَيَّ عَمِي خِبَاطَةٌ سَكْرَانٍ تَكْمُ سَادِرَا
 فَلَنْ تَحْمِلَ الصَّخْرَ الذَّبَابُ وَلَنْ تَرَى السَّ لَاحِفَ يَزْجِينَ السَّفِينَ الْمَوَاخِرَا! ٢٦
 يَصَوِّرُهُ الشَّاعِرُ صُورَةَ كَارِيكَاتُورِيَّةٍ لِلأَضْحُوكَةِ وَ السَّخَرَةِ أَمَامَ النَّاسِ، وَهَكَذَا
 يَشْفِي غَلِيلَ صَدْرِهِ مِنَ الْقَاضِي بِخَامِرٍ.

إِنَّ الشَّاعِرَ يَدْعُو النَّاسَ إِلَيَّ طَلَبَ الْحَلَالِ مِنَ الرِّزْقِ وَ الْاِكْتِفَاءِ بِالْقَلِيلِ الْيَسِيرِ
 مِنْ شَهَوَاتِ الدُّنْيَا، فِيهَا جَمْعٌ عَلَيَّ مِنْ يَكْتَسِبُ الْحَرَامَ وَ يَنْقُدُهُ نَقْدًا لِادْعَا: (مَنْ
 الرِّجْزُ)

أَلَا تَرَى أَكْثَرَ مَنْ فِيهَا يَفِرُ مَخَافَةَ الْفَقْرِ إِلَيَّ نَارِ سَقَرٍ؟ ٢٧
 وَ لَا يَقِفُ دُونَ نَقْدِهِ اللَّادِعُ أَحَدٌ، فَهُوَ يَحَارِبُ هَذِهِ الظَّاهِرَةَ: ظَاهِرَةُ
 الْكَسْبِ السَّرِيعِ، أَوْ الْوَفِيرِ فِي أَيِّ شَخْصٍ كَانَ، وَ كَانَ الْفَقِيهَ الطَّامِعَ أَوْ
 الْمُسْتَغْلَ - كَمَا يَرَى الْغَزَالُ - مَثَالاً يَنْفَعُ أَنْ يُوَجَّهَ إِلَيْهِ اللَّؤْمُ، لِأَنَّهُ - حِينَ يَفْعَلُ
 هَذَا - يَكُونُ قَدْ بَدَأَ مِنَ الشَّخْصِ الَّذِي يَخْشَى النَّاسَ التَّعَرُّضَ لَهُ عَادَةً؛ فَهُوَ إِذَنْ
 يَهَاجِمُ كَبِيرًا أَوْ ذَاسِطَةً فِي قُلُوبِ النَّاسِ لَيْسَ هَلْ عَلَيْهِ أَنْ يَنْتَقِدَ كُلَّ أَحَدٍ بَعْدَ
 ذَلِكَ ٢٨. وَ هَذَا مَعْنَى قَوْلِهِ: (مَنْ الْخَفِيفُ)

لَسْتُ لِقَى الْفَقِيهِ إِلَّا غَنِيًّا لَيْتَ شَعْرِي مِنْ أَيْنَ يَسْتَغْنُونَا؟

نقطع البر والبحار طلاب الرزق وألقوها هنا قاعدونا
إن للقوم مضرباً غاب عنا لميصب قصد وجهه الراكبونا ٢٩
يشك الغزال في مصادر غني الفقهاء ويتهمهم بالكسب الحرام ويطلب منهم
تحري الرزق الحلال و عدم استغلال نفوذهم في الولوج إلي طرق العيش
المحرمة.

٢- أهل الرياء

يعالج الشاعر مسألة الرياء من خلال شخصية رجل وراء مخادع يخدع الناس
بتلونه ألواناً مختلفة، و تظهر سخرية الغزال و قدرته علي تناول الأمور
الاجتماعية من باب الهزاء والاستهزاء علي شخصية المعالجة، فيقول: (مجزوء
الرمل)

ومراء أخذ النسا	س سَمَت وقطوب
وخشوع يشبه السق	م وضعف في الديب
قلت: هل تألم شيئاً؟	قال: أثقال الذنوب
قلت: لا تُعن بشيء	أنت في قالب ذيب
إنما تبني علي الوث	بة في حين الوثوب
ليس من يخبي عليه	منك هذا بليب ٣٠

إنه خلب الناس باصطناع أحوال أهل الصلاح والخير وبأحوال ذوي
المكانة والسلطة، و هو في الحقيقة مخادع من أهل الرياء. و يعتبر عمل النساء
اللاتي يبالغن في زينتتهن من مصاديق الرياء و ينشد في مذمتهن، كما ورد مثله
في آخر أبواب حماسة أبي تمام، و يصف المرأة العجيبة الشكل و الحال وصفاً
ساخراً، و يبالغ في رسم صورة مضحكة مؤذية للعين و النفس بقوله: (من
البسيط)

جَرْدَاءُ صَلْعَاءُ لَمْ يَيْقَالْزَمَانُ لَهَا إِلَّا لِسَانًا مُلْحَاً بِالْمَلَامَاتِ
لَطْمَتُهَا لَطْمَةٌ طَارَتْ عِمَامَتُهَا عَنْ صَلْعَةٍ لَيْسَ فِيهَا خَمْسُ شَعْرَاتٍ
كَأَنَّهَا بَيْضَةُ الشَّارِي إِذَا بَرَقَتْ بِالمَأْذِقِ الضَّنْكِ بَيْنَ الْمَشْرِفَاتِ
لَهَا حُرُوفٌ نَوَاتٍ فِي جَوَانِبِهَا كَقِسْمَةِ الْأَرْضِ حِيزَتْ بِالتَّخُومَاتِ
و كَاهِلٌ كَسْنَامِ الْعَيْسِ جَرْدُهُ طُولُ السَّفَارِ وَالْحَاحُ الْقُتُودَاتِ ٣١

في الواقع لا يريد الشاعر أن يصور المرأة المزينة المزيفة للقراء، بل هو يهدف فوق ذلك وهو الكشف عن ازدياد الفساد و كثرة الذنوب و انتشار الخيانة و الرياء حتي استطاعت المرأة المسلمة أن تحضر في المجتمع بهذا الشكل، و يومئ هذا التصوير إلي نتيجة تعامل الأمراء و الساسة في إدارة مملكتهم بصورة غير معروفة لدي المسلمين.

قضية اجتماعية أخرى تناولها الغزال في شعره قضية الخداع و الطمع الذي تمكّن من كثير من الناس، حتى تمكّنت هذه العادات الكريهة طباعاً من نفوس الناس، وهو لا يري من الناس حوله إلا طامحاً طامعاً و ضرب مثلاً من الثعلب في طلب الدجاج، والقطف في طلب الفأرة. في المقطوعة التالية يبدأ الغزال بقسم غليظ، فيقسم بالله تعالى الذي جعل أفئدة الناس تهوي إلى الكعبة المشرفة، ترجو نصيباً من المغفرة، يقسم الغزال بأنه ما يري من الناس إلا ما يشبه الثعلب في مكره يحتال لصيد الدجاج أو ما يشبه ذئباً خادعة مفترسة أو يشبههم بالقط الذي يريد الوثوب على فأر، كأن الحياة أصبحت صراعاً خبيثاً أسلحة الناس فيه المكر والخداع، يقول الغزال: (من الخفيف)

لَا، وَمَنْ أَعْمَلَ الْمَطَايَا إِلَيْهِ كُلُّ مَنْ يَرْتَجَى إِلَيْهِ نَصِيباً
مَا أَرَى هَا هُنَا مِنَ النَّاسِ إِلَّا ثَعْلَباً يَطْلُبُ الدَّجَاجَ وَذَيْباً
أَوْ شَبِيهَاً بِالْقِطِّ أَلْقَى بَعِينِي هِ إِلَى فَأَرَةٍ يُرِيدُ الْوُثُوبَا ٣٢

٣- مستغلوا السلطة والثروة

ينقد الغزال ذوي السلطة من الساسة والحكوميين الذين يستغلون مكانتهم في جمع المال، و كثيراً ما يقتزن هذا بالظلم علي الناس و تضییع حقوقهم، و هذه الصفات تتجلی عند نصر الخصبی^{٣٣} المتنفذ، وهو قائد عسكري و ضابط للشرطة و مشرف علي الأمن العام في الأندلس، الذي استغل مهمته في غير طريقه و جمع المال و كل ما يشتهي إلي أن وافته المنية، وخلف زرياب^{٣٤} علي دار نصر الواسعة «أثناء قدوم زرياب، المغني المشهور، إلى الأندلس اعتنى به الأمير عبد الرحمن بن الحكم عناية كبيرة، وأنزله بمنية نصر^{٣٥}». ينشد الشاعر هذه الأبيات بعد موت نصر تعريضاً بزرياب و أمثاله الذين يقومون بمثل هذه الأعمال في خداع الناس، فيقول: (من الخفيف)

ذكر الناس دار نصر لزرياب ب، وأهل لئيلها زرياب
هكذا قدر الإله و قد تجرّي بما لا تظنّه الأسباب
أخرجوه منها إلي مسكن لي سس عليه إلا التراب حجاب
لا يجب الدّاعة فيه ولا يرّجع من عنده إليه جواب
و تغانت تلك المراكب عنه وأمّلت إلي سواه الركاب^{٣٦}

وهنا يذكر الغزال تقلب الدنيا بأهلها مع الشّماتة بميّة نصر، لا من جهة التّشفي الشخصي بل من جهة ضحك الأقدار علي مصير رجل أغراه نفوذه بالإسراف علي نفسه و تجاوز حدوده، و أشرنا إلي ما في القصيدة من التعرض للزرياب.

و ينتقد الشاعر الأثرياء الذين يجعلون أموالهم جنة لستر عيوبهم في المجتمع، و يصف واقع مجتمعه الذي يتفاضل الناس فيه بالمال، فيصبح الغني ذا مكانة اجتماعية مرموقة، ووسيلته إليها هي ماله، فيؤكد في أسلوب شرط بأن

الشخص إذا كان من الأغنياء فهو السيد المطاع ، ولن يبحث الناس عن نسبه وحسبه ، فيكفي أنه على هيئة الآدميين فحسب. يقول الغزال: (من المتقارب) إذا كنت ذا ثروة من غنى فأنت المسود في العالم وحسبك من نسب صورة تجبر أنك من آدم! ٣٧

و في بيتين آخرين يصرح الغزال بأن الدنيا قد فسدت وساء حالها، لا ترى فيها إلا حزينا مهموماً حتى صار الحى من الناس يغبط الأموات لأنهم في راحة وسكون، ويقول الغزال: (مجزوء الرمل)

لقد فسدت فما تلقى بها من ليس ذا شجن و صار الحى منا يغبط المفلوف في الكفن! ٣٨

٤- ظاهرة زواج الصغيرة من الكبير الغني

من أبرز الظواهر الاجتماعية التي تناولها الغزال في شعره بالنقد والتحليل هي ظاهرة زواج الصغيرة من الكبير الغني؛ الظاهرة التي كانت شائعة في الأندلس، وتعد من مظاهر الفخر والغنى فيها ٣٩، وقد تناولها الغزال في عدة صور:

١) في الصورة الأولى يقول على طريقة الحكاية: إن أباً قد خير ابنته في رجلين تقدماً لطلب الزواج بها، أولهم شيخ غني والآخر شاب فقير، فرأت الفتاة أن الأمرين كليهما أسوأ من الآخر، وليس لأحد منهما ميزة خاصة المرجحة علي الآخر حتى تختاره، ثم استدركت قائلة لأبيها إن عزمت على زواجي من أيهما سأختار الصغير، لأنني قد أقبل أى شىء إلا النظر في وجه الكبير؛ وختمت قولها بتعليل رائع جميل قائلة: إن سبب اختيارها للشاب أنه سيصيبه الغنى في المستقبل، أما الكبير سنأفلن يعود شاباً أبداً، يقول الغزال: (من الوافر)

وخيرها أبوها بين شيخ كثير المال أو حدث فقير
فقلت: خطتا خسف وما إن أرى من حظوة للمستخير

ولكن إن عَزَمْتَ فَكُلْ شَيْءٌ أَحَبُّ إِلَى مَنْ وَجْهَ الْكَبِيرِ!
لأنَّ المرءَ بَعْدَ الْفَقْرِ يُشْرَى وَهَذَا لَا يَعُودُ إِلَى صَغِيرٍ! ٤٠

(٢) أما الصورة الثانية: فينتقد فيها الغزال أكذوبة الفتيات في خداعهن للرجال و عدم الصداقة في العشق و الزواج الذي يربط بقوام المجتمع، و بهذا يتأكد علي وجود هذه المظاهر الفاسدة في المجتمع ٤١، و يجعل نفسه في حوار طريف مع إحدى الفتيات الصغيرات، وكان الشاعر شيخاً، حيث أظهرت له الفتاة حبها، ورد عليها متهماً إياها بالكذب، وبأن تخدع بكلامها هذا شخصاً آخر قليل التجربة والخبرة، ثم يردف معللاً بأن من طعن في السن لا تحبه الفتيات الصغيرات، وأن كلامها هذا من المستحيل تحقيقه أو تصديقه، فمثله مثل قولك بأنه يمكن عقد الريح وربطها، أو أن النار باردة، أو أن الماء يشتعل، فهذه كلها من المستحيلات، يقول الغزال: (من الكامل)

قَالَتْ: أَحَبُّكَ ، قُلْتُ: كَاذِبَةٌ غُرِّي بِذَا مَنْ لَيْسَ يَنْتَقِدُ
هَذَا كَلَامَ لَسْتُ أَقْبَلُهُ الشَّيْخُ لَيْسَ يُحِبُّهُ أَحَدُ
سَيِّانَ قَوْلِكَ ذَا وَقَوْلِكَ إِنَّ الرِّيحَ نَعَقِدُهَا فَتَنْعَقِدُ
أَوْ أَنْ تَقُولِي : النَّارُ بَارِدَةٌ! أَوْ أَنْ تَقُولِي : الْمَاءُ يَتَّقِدُ ٤٢

الشاعر ينبه إلي فتنة الصغيرات للشيخ، فيؤكد أن الفتاة إذا أظهرت حبها لشيخ كبير السن، فهي كاذبة ومنافقة، وتحفي في ضميرها بغضاً ومقتاً له، وأنها إذا ادعت حب الكبير، فهي مخادعة له، وستخادع غيره، والأدهى من ذلك أن الشيخ إذا هوى وعشق فتاة صغيرة فهو مخدوع، ولن تخلص له هذه الفتاة ، يقول الغزال: (من الكامل)

إِنَّ الْفَتَاةَ وَإِنْ بَدَأَ لَكَ حُبُّهَا فَبِقَلْبِهَا دَاءٌ عَلَيْكَ دَفِينُ
وَإِذَا ادَّعَيْنَ هَوَى الْكَبِيرِ فَإِنَّمَا هُوَ لِلْكَبِيرِ خَدِيعَةٌ وَقُرُونُ!
وَإِذَا رَأَيْتَ الشَّيْخَ يَهْوَى كَاعِباً فَعَلَيْهِ مِنْ دَرَكِ الْقُرُونِ زَبُونُ ٤٣

ومن الظواهر الاجتماعية التي يبدو أنها كانت شائعة في عصر الغزال ظاهرة شراء الشيوخ الأثرياء للجواري الصغيرات ، كالقصيدة التالية التي يعاتب الشاعر فيها شيخاً كبير السن رآه يقبل فتاة صغيرة، والشيخ يرد عليه بأنه قد اشتراها بماله (ويتحاوران)، والشيخ مصمم على موقفه من أن كل شيء مقدر، وهذا قدره، والغزال يسخر منه رافضاً تعليله، يقول الغزال: (من السريع)

أَبْصَرْتُ شَيْخاً قُرْبَهُ نَاهِدٌ	يَلْتَمِهَا كَالْقَمَرِ السَّارِي
أَسْنَانُهَا فِيمَا يُرَى لَوْلُو	صُفِّفَ فِي فِيهَا بِأَسْطَارِ
إِلَى لِثَاتٍ شَبَّهَ مَادِينَج	دَكُّوا بِهِ صَنْعَةَ مِثْشَارِ
أَنْنِي تَوَصَّلْتُ إِلَى هَذِهِ	فَقَالَ لِي: لُطْفِيو دِينَارِي
خَوْفَتُهُ اللَّهَ وَرَوْعَتُهُ	مِنْهُ بِتَرْدَادٍ وَتَكَرَّارِ
فَقَالَ وَالشَّيْخُ خَبِيثٌ إِذْ	كَلَّمَ مَنْ مَشِيخَةَ النَّارِ:
بِاللَّهِ دَعْنِي أَقْضِي مِنَ الدُّنْ	يَا لُبَانَاتِي وَ أَوْطَارِي ٤٠

٥- لعبة الشطرنج

من الآفات الاجتماعية التي عالجها الغزال في شعره شيوع لعبة الشطرنج، فأدانها الغزال بقصيدته التي يخاطب فيها إبراهيم ابن أخته، وكان إبراهيم قد أسرف في ممارسة لعبة الشطرنج التي كانت دارجة ومنتشرة في أيامه، وكانت جميع الطبقات الاجتماعية في العالم الإسلامي تلعب الشطرنج ٤١. وكان كثير من الشباب ينصرفون إليها آنذاك، وينفقون في ذلك وقتاً طويلاً، يضيعون به واجباتهم وأعمالهم؛ فبدأ الغزال قصيدته مبدياً غمّه وحزنه من هذا الأمر، ويوضح أنها عمل غير صالح ليست فيه جدوي إلا جلب الاختلاف

والتنازع بين اللاعبين، ويرى أن أساس هذه اللعبة، الشيطان الرجيم الذي يريد أن يوقع العداوة والبغضاء بين لاعبيها، ويتهم الغزال ساخرًا من ابن أخته قائلاً له : إفترض أنك أمهر الناس في لعبة الشطرنج ، فماذا بعد ذلك يا حكيم ؟ ثم يوضح الغزال بعد ذلك أن لعبة الشطرنج شؤم، ويطلب من ابن أخته أن يتجنبها ، ويقول إن قوله هو الصواب ولا يعنيه من يقول غير ذلك، مشبهاً لعبة الشطرنج بالفرس التي لم تنتج إلا مهراً واحداً ضعيفاً، واليوم ينزى عليها الكثير من الأحصنة، وهى عقيم لا تنجب. والمقصود أنها عديمة النفع والفائدة ، يقول الغزال: (من مجزوء الرمل)

غَمَنِي عَشْقُكَ لِلشَّطْرِ	رَنَجَ هَذَا يَا بُرْهِيمُ
عَمَلٌ فِي غَيْرِ بَرٍّ	وَاخْتِلَافٌ وَلُـزُومٌ
إِنَّمَا أَسْهَأَ وَيَـ	حَكَ شَيْطَانٌ رَجِيمٌ
هَبَكَ فِيهَا أَلْعَبَ النَّـ	سَ فَمَاذَا يَا حَكِيمُ ؟
لُعْبَةُ الشَّطْرَنَجِ شَوْمٌ	فَاجْتَنِبْهَا يَا شَوْمُ
فَلْيَقُلْ مَا شَاءَ مَنْ شَا	ءَ فَقُولِي : مُسْتَقِيمٌ
إِنَّمَا جَاءَتْ بِمُهِرٍ	وَاحِدٍ وَ هُوَ وَخِيمٌ
وَالَّتِي يُنْزَى عَلَيْهَا إِلَـ	وَمٌ مِّنْ يُنْزَى عَقِيمٌ ٤٢

ثم يوضح الغزال أن من يختبر قوله في الشطرنج سيجده صحيحاً، فهي قد جعلت لذوى الشأن العظيم من الملوك حيث تجبى إليهم النعم، أو الوزراء أو الندماء أو الأغنياء الذين ورثوا أموالاً طائلة تحميهم من غدر الزمان، وتجعل الدهر مسالماً معهم؛ ويقصد الغزال من وراء هذا المعنى تنبيه ابن أخته إلى أن لعبة الشطرنج ستشغله عن العمل والكسب، لأنها لعبة الخاملين والأغنياء؛ ويختم قصيدته منبهاً ابن أخته إلى أخذ العظة والعبرة، ويقول خطاباً له: تذكر

وتأمل حال من ينتهي من لعبة الشطرنج ويقوم عنها، ما الذي كسبه ؟ ثم يجب بأنه لم يكسب سوى شيء يسير وقليل من سرور لا يدوم، بل سرعان ما يزول، وإذا بلغ بيته ووصل إليه تملكته الحسرة واللؤم على ضياع وقته في لعبة الشطرنج، وهذا الخطاب لابن أخته خطاب لجميع الشباب الذين يضيعون عمرهم في لعبة الشطرنج، فيقول الشاعر: (مجزوء الرمل)
وسَيَلُوْ صَدَقَ مَا فَسَّرْتُ فِيهَا مِنْ بَرُومٍ إِنَّمَا هِيَ لِأَنَاسٍ شَأْنُهُمْ شَأْنٌ عَظِيمٌ
مَلِكٌ يُجْبَى إِلَيْهِ أَوْ وَزِيرٌ أَوْ نَدِيمٌ أَوْ رَجَالٌ وَرَثُوا الْأَمْوَالَ لِلدَّهْرِ سَلُومٌ
فَادْكُرْ مَا بِيَدِ الْقَائِمِ عَنْهَا إِذْ يَقُومُ هَلْ سِوَى شَيْءٍ يَسِيرٍ مِنْ سُرُورٍ لَا يَدُومُ ٤٣٤

الخاتمة

يحيى بن حكيم الغزال من الشعراء المجيدين في مجال الشعر الاجتماعي في الأدب العربي عامة و الأدب الأندلسي خاصة، وبما أنه كان ملازماً بالبلاط كان يتوقع منه أن يغمض عينيه أمام أحداث و وقائع المجتمع المريرة من الفساد و الخداع و شيوع الفقر و الحرمان و استغلال المناصب و كل ما يرتبط بشؤون الناس و الحكومة، و لكن خلاف غالبية شعراء البلاط لن ينسي وظيفته الثقافية في المجتمع كشاعر مؤثر و ملتزم يهتم بأمور الشعب، و في سبيل تبين ما وقع في المجتمع من المفاسد الأخلاقية و المظالم و مكاره الأخلاق كان جريئاً لا يخاف من أحد من الساسة و أرباب الثروة و القدرة، و إنه ينتقد ما يشاهد من الأخطاء و الفساد في العمل و العادات و الأعمال غير الشرعية و لا العرفية في المجتمع، و يكشف عما يعتقد في ضميره و يصرح بما يجول في نفسه، و كثيراً ما ينتقد الأقوياء و أصحاب المناصب الحكومية، لأنه يري أن الإصلاح في المجتمع يجب أن يبدأ من الطبقة العليا حتي ينتهي إلي الرعية، و حينئذ يجري الإصلاح

في المجتمع و يستقبله الناس بحفاوة و هو لا يترك الناس مع عاداتهم القبيحة و السيئة، بل ينتقدهم إيماناً منه بأن من واجب الشاعر أن يقوم بإصلاح المجتمع و هدايتهم نحو القيم الإسلامية و الإنسانية، و من هنا تطلأت ملاحم الشعر الاجتماعي في ديوانه.

هوامش البحث

- ١ أحمد بن محمد ابن عذارى المراكشي، البى ان المغرب في أخبار الأندلس و المغرب، ج٢، ص ٩٣
- ٢ يحيى بن حكيم الغزال، ديوانه، ص ٧٠.
- ٣ ابن حيّان القرطبي، المقتبس من أنباء أهل الأندلس، ص ١٥٢
- ٤ المقرئ التلمساني، أحمد بن محمد، نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج٢، ص ٢٥٥
- ٥ محمود حسن محمود و حسن بك زكي محمد، معجم الأنساب و الأسرات الحاكمة فى التاريخ الإسلامي، صص ٨٥-٩٥.
- ٦ يحيى بن حكيم الغزال، ديوانه، ص ٦٣.
- ٧ أبو الخطاب أبو الفضل أبو الحفص أبو علي عمر بن الحسن بن عليّ ابن دحية، المطرب في أشعار أهل المغرب، ص ١٣٦.
- ٨ جنتال، أنخل، تاريخ الفكر الأندلسي، صص ٥٥-٥٦.
- ٩ أبو الخطاب أبو الفضل أبو الحفص أبو علي عمر بن الحسن بن عليّ ابن دحية، المطرب في أشعار أهل المغرب، ص ١٣٢.
- ١٠ كراتشكوفسكى، تاريخ الأدب الجغرافي، ج١، ص ١٣٥.
- ١١ يحيى بن حكيم الغزال، ديوانه، ص ٣١.
- ١٢ أبو الفرج الأصفهاني، الأغاني، ج١، ٥٠٢ و ٥٦٩ و ٥٤٧.
- ١٣ ابن حيّان القرطبي، المقتبس من أنباء أهل الأندلس، صص ١٢٠-٢٠٥.

- ١٤ يحيى بن حكم الغزّال، دىوانه، ص ٤٣.
- ١٥ المرجع نفسه، ص ١٩.
- ١٦ الأسوار بن عقبة من أهل قرطبة، يكنى أبا عقبة، كان قاضىاً، وتوفي سنة ٢١٣ هجرى.
- ١٧ المرجع نفسه، ص ٨١.
- ١٨ معاذ بن عثمان الشعباني، من أهل جيان، كان قاضىاً بقرطبة من جانب الأمير عبد الرحمان بن الحكم.
- ١٩ أبو المطرف عبد الرحمن بن الحكم (١٧٦ هـ - ٢٣٨ هـ / ٧٩٢ - ٨٥٢ م) المعروف أيضاً بلقب عبد الرحمن الأوسط وتذكره المصادر الأجنبية باسم عبد الرحمن الثاني، هو رابع أمراء الدولة الأموية في الأندلس. كان محباً لحياة الأبهة والثناء، وعاشقاً للفنون والآداب، كما اهتم بنواحي العمران والزراعة، وكان له دور بارز في إنشاء أول أسطول حربي كبير في الأندلس، فكان بذلك عصره بداية للنهضة الثقافية والحضارية التي شهدتها الأندلس.
- ٢٠ المرجع نفسه، ص ٦٧.
- ٢١ المرجع نفسه، ص ٦٦.
- ٢٢ المرجع نفسه، ص ٧٢.
٢٣. وهو القاضي خامر بن عثمان الشعباني، ولآه الأمير عبد الرحمن الأوسط قضاء الجماعة في قرطبة.
- ٢٤ المرجع نفسه، ص ٤٩.
- ٢٥ أبو عبدالله محمد بن حارث القىرواني الحشني، قضاة قرطبة، ص ٥٤.
- ٢٦ يحيى بن حكم الغزّال، دىوانه، صص ٤٩-٥٠.
- ٢٧ المرجع نفسه، ص ٧٦.
- ٢٨ المرجع نفسه، ص ٢٠.
- ٢٩ المرجع نفسه، ص ٧٧.
- ٣٠ المرجع نفسه، ص ٣٥.

- ٣١ المرجع نفسه، ص ٤٢.
- ٣٢ المرجع نفسه، ص ٣٢.
- ٣٣ أبو الفتوح نصر الخصي هو رجل من مولدي قرمونة، كان من الموالي المقربين للأمير عبد الرحمن الأوسط أمير الأندلس والمتولي شئون قصر الأمير.
- ٣٤ زرياب، هو أبو الحسن علي بن نافع الموصلي، موسيقي ومطرب عذب الصوت من بلاد الرافدين. كانت له إسهامات كبيرة و عديدة وبارزة في الموسيقى العربية والشرقية. لُقّب بزرياب لعذوبة صوته ولون بشرته القاتم الداكن، توفي في قرطبة سنة ٢٤٣ هـ الموافق ل ٨٥٧ م.
- ٣٥ ابن حيّان القرطبي، المقتبس من أنباء أهل الأندلس، ص ١٥٤.
- ٣٦ يحيى بن حكيم الغزال، ديوانه، ص ٣٦.
- ٣٧ المرجع نفسه، ص ٧٧.
- ٣٨ المرجع نفسه.
- ٣٩ أحمد بن محمود المقرئ التلمساني، نفع الطّوب من غصن الأندلس الرطوب، ص ٢٥٢.
- ٤٠ يحيى بن حكيم الغزال، ديوانه، ص ٦٢.
- ٤١ إحسان عباس، تاريخ الأدب الأندلسي (عصر سيدة قرطبة)، صص ١١٩-١٢٠.
- ٤٢ يحيى بن حكيم الغزال، ديوانه، ص ٤٥.
- ٤٣ المرجع نفسه، ص ٧٩.
- ٤٤ المرجع نفسه.
- ٤٥ محمد أنيس فاروقي، تأثير الآداب والفنون الهندية على العرب خلال العصور الوسطى، ج ٦٥، ص ٣١، و سماء زكي المحاسني، ادب الخوري: الشطرنج في التراث العربي أرقى ألعاب الذهن لتنمية الفكر.
- ٤٦ يحيى بن حكيم الغزال، ديوان يحيى بن حكيم، ص ٧٣.

٤٣ المرجع نفسه

.44 Assistant prof. Arabic language and literature, Kharazmi University

45. Graduate Ph.D. Arabic language and literature, Kharazmi University